حكاية عادية

كم امرأة إكتشفت بعد زواجها أنه شخص آخر غير الذى عرفته؟

كانت فتاة مثقفة جداً تحب القراءة والإطلاع، مرت عليها مئات القصص التى عاشت فيها أكثر مما عاشت بين الناس، وكان شرطها فيمن ستتزوجه ألا يقل عنها ثقافة وعلماً، لم تشترط منصب أو وظيفة بعينها أو مستوى مادي عالٍ، إنما اشترطت أن يكون مثقفاً وكان ذلك لقلة خبرتها في الحياة، كانت تعتقد أنها ستحتقر من دونها في الثقافة ولا سيما أنها صادفت الكثيرين حولها أقل منها ثقافة فانساقت وراء هذه الفكرة وكانت خجولة وعلى خلق إلى درجة أنها تنعت بالمتزمتة التي لا تقبل تهاون في أي سلوك، صريحة واضحة داخلها مثل خارجها مقلة في التعامل مع البشر تميل إلى الإنعزال كعادة من يحبون القراءة ويندمجون في دخائلها.

تقدم لها أحدهم وكان يكبرها بعشر سنوات وكان مثقف، يقرأ الصحف والمجلات بانتظام وليس الكتب والروايات، ولكنه يظهر ثقافته في شتى الأحاديث مع من حوله، ولكنه كان يعود لأصول ريفية

بل ويقطن في الريف، من عائلة معروفة ولكنه ليس غنياً بالمعنى المتعارف عليه إنما يملك جزء بسيط من الأرض الزراعية ورثه عن والده ومنزل أعاد بنائه على أثر عودته من إحدى الدول العربية، حيث عمل بها عدة أعوام من قبل.

تقدم لخطبتها وتمت الخطبة بعد ما تأكدت "نور" أنه يتحقق فيه الشرط الوحيد الذي وضعته لمن توافق عليه وكانت متفائلة في أول الخطبة وسعيدة بمناقشاته حول الكتّاب القدامى والمعاصرين ولكن الشك تسرّب إلى قلبها ذات يوم في أنه ربما لمس في شخصيتها نقطة ضعفها التى وافقت عليه من أجلها وبدأت الأفعال الصغيرة تمحو الأفعال الكبيرة.

فقلت لها: عفواً لم أفهم.

قالت: ربما يصنع أشياء كبيرة جداً يحسدنا الناس عليها ولكنه في المقابل يضيعها هباءً بأفعال أخرى لم يفعلها، صغيرة جداً قد لا تكلفه شيء وهي هامة بالنسبة لنا.

كأنه يخذلني ذات مساء حين ينجح إبننا بتفوق ويرفض أن يحضر حفل تكريمه كباقى الآباء. أو كأنه مثلا يتركني مريضة عدة أيام ولا يسأل عن حالي ولو على سبيل العلم بالشيء، فأفهم أنني لا أهمه في شيء، أو ربما ذات مساء أعلم ان أحد والدي مرض والجميع عاده حتى الغرباء وهو يرفض ان يصطحبني وأنا أعوده، فأظهر بمظهر المرأة الوحيدة او المهملة.

أو أن تكون هناك مناسبة تخصنى أيّا كانت ويسعدني وجودي فيها ولا يمانع هو في ذلك ثم يرفض أن يرافقني.

وأحياناً كان يأتي علي حين أضطر إلى مجاملة أحد الأهل أو الأصدقاء ويتركني كعادته أذهب اليه وحدي.

كل هذا شيء وكوني أحجز في المستشفي لعمل بعض الفحوصات والأشعة وأتعرض للتخدير الكلي ويرفض أن يرافقني ويدعني لأبي المسن وأمي المريضة ليأتوا معي، فيضطر أبى أن يخبر إدارة المستشفى أن زوجي مسافر للخارج حينما يتم السؤال عنه لأنه يعلم أنه وضع غير مقبول اجتماعياً ان أجري فحوصات وحدي بدون زوجي.

وغيرها مواقف كثيرة يضيع بها أى فعل كبير من وجهة نظره طبعاً ويمحوه ويجعلنى وأبناؤه نراه مقصر رغم ما يبذل من جهد في عمله، ورغم علمه أن ما يفعله لا يشكل فرق في حياتنا مهما قدم ومهما تعب فنحن لا نستطيع ان نراه حتى في دائرة الضوء حولنا.

ما أصعب أن تعرف أن قصة عمرك قد خُطَّت بقلمٍ رصاص يمكن أن تُمحَىَ سريعاً في لحظات ،أن تحيا دهراً وكأنه غمضة عين تبحث عن ذاتك التى أفنيتها في غيرك فلا تعثر لها على أثر، تطارد خيالاً كنت أنت وحدك من تراه وتتآلف معه حتى ظننته حقيقة وتعبث بك الأيام فتجده خيال ليس إلا، سنوات نقتطعها من روحنا ونعيشها بكل ما فيها من مشقة وابتلاءات وعثرات ونظن اننا اختتمنا متاعبنا لنبدأ حصاد ما زرعناه فإذا بنا صفر اليدين لا شيء يبقى للأسف.

حتى ما كنا نظنه راسخاً لا يتزحزح ما لبث أن نُسِف وتلاشى وكأن شيئا لم يكن، هل تتغير القلوب؟؟ أم تراها تمل؟ أو ربما تتوه عن مسارها، ولا عزاء للوفاء يا قلبي.